رَسائِلُ مِنْ أسيّر

ديانا دانتي

أسم الكتاب: رسائل من أسير
الكاتب: ديانا دانتي
الناشر: ورقة وقلم
تاريخ النشر: ٣١/٧/٢٠١٩
التنقيح اللغوي: إنصاف جاسم الجبوري
الأخراج الفني: عبدالرحمن ضرغام الربيعي

الإهداء الى كُل من وثق بي...

أنا جُندي بدأت حكايتي عام ١٩٨٢
مُتزوج لدي ابنتان و ولد
كنتُ أقضي نصف الشهرِ في المَنزل
والنصف الآخر في الجيش مع زُملائي
في يومًا ما والشَمسُ مُشرقة كوجهُ زوجتي عندما تَبتَسم
ذَهبتُ الى آمر الوحدة لأطلب منهُ المُوافقة على منحِ الأجازة
ليَسمح لي بالذهابِ الى المنزل فوافق
ثم كَتبَ أسمهُ وتوقيعهِ المُميز على ورقتي البيضاء

خَرجتُ من غُرفتهِ ذَهبتُ الى غُرفتي
جَمعتُ ثيابي وأشيائي سُرتُ مُسرعًا
وأنا مَليء بالشَوق الى عائلتي

السعادة التي يَشعُر بها الجُندي في إجازتهِ سعادةٍ من نَوع آخر

لم أتجاوز متران على موقعنا سَمعتُ صَوت إطلاق النار
رأيتُ زُملائي الجُنود يتراكضون من أماكنهُم

بأعلى صوتي صَرختُ اسألهم ماذا حَدث ؟
أجابني أحدهم لقد هاجمونا الأعداء
لم أستطيع تَركهم فأنا خُلقتُ بروح المُساعدة
كيف أرحل وأعلم هُناكَ من يحتاج لي

عُدت مُسرعًا

_هيا أعطوني سلاحًا
_أذهب ماذا تَفعل معنا ألستُ أنتَ مُجاز ؟
_كيفَ أرحل وأنا أعلم العدو هاجمنا .

مَسكتُ بُندقيتي وبدأتُ أدافع بُحبٍ مع فريقي
لنَنقُذ وطننا

ولكن

ولكن لم نَنتَصر كُنا مَجموعةٍ كبيرة وفقدنا كثير من الجُنود
أحدهم تَحول الى قطعًا والآخر وَدع الحياة
وهو يَصرخ أخبروها أني أحبُها

رأيتُ الدماء تُلطخ الرمال وأصوات الرصاص بدأت تختفي
اي يعني لم يَعد لنا عتاد

ومن الواضح الأعداء يَقتربون

سَيطر عليّ الخوف هل سأنجو من هُنا ؟

ماذا أفعل وأنا في أرض قاحلة البطل الآن يجب أن يَنقُذ نفسهِ
وقفتُ على قدمي نافضًا التراب
بدأتُ أركض لعلني أنجو منهم
حينها راودني شعور مُختلف لم أشعر بهِ أبدًا
كأن شيئًا أمتزج مع دمي شعرت بالدوران

نظرتُ الى الوراء

رأيتُ بُقع الدم خلفي وجدتُ قدماي تنزف لا يا الهي

لقد أصبت كيف سأنجو الآن

لم أستطيع المُقاومة فسقطتُ على الأرض

نظرتُ الى السَماء
وأنا مُبتسم تحدثتُ مع الشَمس
يا حبيبتي لا تقلقي سوف أتجاوزهم
أنتِ فقط أبتسمي

أغمضت عيناي ويا ليتني لم أغمضها

بعد مرور بضع من الوقت لا أعلم نَحنُ الآن في أي ساعة

فتحتُ عيني وجدتُ نفسي في مكان مُظلم لهُ ضوء أصفر خافت وأصوات مُختلفة لكنني أستطعت تمييز إنها أصوات رجال

تذكرتُ قَدمي وجدتُها ملفوفة بقطعةِ قماشٍ بيضاء مُلطخة بدمي

اهٌ يا الهي ماذا حصل لي

اين أنا الآن ؟

شعرتُ بأننا نتحرك لسنا ثابتين رأيتُ بجانبي رجلًا
قال لي هَل أستيقظت كيف حالك؟
قلتُ بخير .
أخبرني ماذا حَصل وأين نَحنُ الآن ؟

وقال الرجل
الأعداء أنتصروا و أحاطوا موقعنا وبدأوا بأطلاق النار على من حاول الهروب وأنت أصبت بقيت في منتصف الطريق
لم أستطيع تركك بمُفردك أتيت لمساعدتك
حينها وجه أحد جنود الأعداء سلاحهُ فوق رأسي فصرخ بلهجةٍ مُختلفة لكنني فهمت منهُ يريد أن أسلم نفسي لهُ
نظرتُ إليه أحاول أن أفهمهُ أنكَ مُصاب
أشار الي بيدهِ بمعنى احملهُ معك وانا لم أجد سواء كنزتي مَزقتها لنصفين ووضعتها على قدمك لأضمن توقف الدم
وحملتكَ على ظهري والجندي خلفنا ولا زال السلاح موجه علينا حتى رَكبنا في حافلة كبيرة فحاولنا أن نفهم
ماذا حَصل ...

حينها علمنا أننا أسرى الحرب ويأخذونا الى بلادهم

أجبتهُ شكرًا لك لا أنسى لكَ هذا

وضعتُ رأسي بين يدي وأحاول فهم
ما حصل لي وكيف تَغيرت حياتي
وهَل سَنعود ؟
كُنتُ فرحًا لأني سَأذهب لعائلتي والآن لا أحد يعلم الى أين يأخذوني نظرتُ الى الشباب كانوا يبكون والرجال الكبار يصرخون ويشتمون نَحنُ لنا مكانة في هذا المُجتمع
نَحنُ أصحاب رتب تأخذ لنا تحية

هَل هذا حالنا الآن

قلتُ لنفسي هؤلاء ضُباط كبار هكذا يتحدثون ولا أحد يُجيبهم

ماذا عني أنا الجُندي

بدأتُ أشعر بالأختناق الحافلة ليس لها مَنفذ هواء لنتنفس
بعضهم يسعلون والبعض الآخر فقدوا الوعي بلا ماء وطعام ولا نَعلم كم تبقى لنصل لسنا سعداء بوصولنا ولكن على الأقل
نَخرج من هُنا ونستنشق نسمة هواء حتى أن احدهم توفى بسبب ضيق التنفس

وأنا جالس في زاوية أنظر اليهم وأفكر
ياتُرى ماذا سيحصل غير ما حل بنا ؟
ومن هُنا بدأت مُعاناتي وفعلًا تغيرت حياتي
لم أعد ذلكَ الرجل المُتحرر يفعل ما يشاء بدأت الحافلة تسير ببطئ حتى وقفت بدأوا يصرخون مُجددًا اتركونا
مَضت عدة ساعات ونَحنُ في الظلام
عندما أنفتح باب الحافلة وضعنا أيدينا على أعيننا
لنحاول رؤية الخارج
رأينا جنود يرتدون زي مُخالف لزينا
واقفين ينتظرونا وفي وجههم إبتسامة إنتصار
بدأوا يأخذونا واحدًا تلو الآخر

وكُل شخصً يُقَيد بشخصٍ آخر بواسطة كلبشات
أي يعني كُل إثنين لا يستطيعون الحركة

لأنني جالس في نهاية الحافلة كنتُ اسير ببطئ شديد
بسبب قدمي المُصابة والألم يتضاعف

أحدهم صَرخ الي نظرتُ إليهِ
لا أفهم ما يقولهُ ولكن إشارة يدهِ تقول أسرع
لم أبالي لهُ وصلتُ مَسك بيدي ليُقيدها مع الجندي
الذي بجانبي بينما هو مشغول بتقيدي
أنا أنظر الى السماء

لأرى حبيبتي أقصد الشمس
تبين لي إنها حزينة آهٌ يا حبيبتي هَل وصل لكِ خبر فقداني

هل أفتقدتني الآن ماذا عن أولادي .

أستمع لصوت الأقفال نظرتُ الى كلبشات قيدتني
شعرتُ بأنها قيدت عُنقي وليس مَعصمي

وقفنا جميعنا مُقيدين أمام بناء كبير طلائهُ أسود اللون

نعم انهُ السجن

بدأو يدفعون بنا ونَحنُ نسير الى الأمام حتى خرج مسؤول كبير أعطى لهم أوامر ادخلون الى البناء وأصوات الصُراخ تَهُز الجدران لا أعلم سبب صراخهم ولكن أظن أنهم يتعاقبون مررنا من بينهم والبَعض منهم ينظرون إلينا من خلف القُضبان وضعونا على شكل مجاميع
كُل مجموعةٍ في زنزانة نظرتُ الى الذي أنقذني
لقد فرقوه عني ادخلوني في السجن مع بعض جنود بلادي
كانت غُرفة كبيرة بها مجموعة من الرجال لكُل رجلٌ سرير
سريرٍ فوق سرير وفي المُنتصف مَدفئة يجلسون حولها رجال كبار يستوطن رأسهم الشيب التفتوا

ونظروا إلينا واعادوا نظرهم الى المَدفئة قام من بينهم رجل كبير بيدهِ سبحة
نظر إلينا وقال هَون الله عليكم فرحتُ لأنهُ يتكلم مثلنا
أجبتهُ هَون الله عليك أيضًا يا عمي ضحك وكأنهُ يسخر مني
اتسأل نفسي هَل قلتُ مُزحة أستمر بالضحك حتى حاول أن يهدأ وسألني كم عمرك يا بني
أجبتهُ ثلاثين عام
نظر الى زملائهُ ويقول لهم ثلاثين ويضحك من كل قلبه
حتى تحولت ملامح وجههُ الساخرة الى ملامح حزن

تقرب مني وضع يدهُ على كتفي يا بني أعتذر لأنني سخرت منكَولكن عندما قالوا لي أول مرة هَون الله عليك
كنتُ بعمرك والآن كما ترى عيناك
أتمنى أن تهون عليك
أذهب الى سريرك

جلستُ على السرير شعرتُ بالخوف من كلامهِ
هَل سأبقى هُنا كثيرًا لا لن أفكر هكذا سنتحرر
أحدهم كان طبيب قام بتضميد قدمي المُصابة
ولكن لم أعد أسير كالسابق

مرت عدة أيام اليوم أصبح اليوم الثلاثون لنا
في كُل أسبوع نخرج الى الباحة مرةً واحدة
كانوا يخرجونا لمشاة أو التنفس
إلا أنا كنتُ أخرج لأتحدث مع شمسي

لا نعلم ماذا سيحصل بنا وكم تبقى لخروجنا
كيف حال عوائلنا أين نَحنُ الآن

كل هذا مجهول .....

بعد شهر من سجننا بدأنا نتعاقب بلا سبب ومن المؤسف هذهِ السنة السادسة على سجننا
جسدي الآن مشوه بسبب المياه الساخنة التي كُنا نحترق بها نصرخ لا أحد يسمع لنا
لا ننام الليل من الألم لم أتوقع بأني سوف أبكي يومًا ما
ولكن الآن كُل ليلة أبكي بمُفردي كطفل بحاجة لوالدتهِ
وصل خبر لنا بأن بلادنا انتصرت بهذهِ الحرب التي دامت أكثر من ثمانية أعوام بخسائر وأسرى
وأخيرًا انتصرت
كُنا سُعداء ظننا بأننا سَوف نعود ويتم إطلاق سراحُنا
ولكن خاب ظننا لأن بلادنا أنتصرت
غضبوا منا الجنود والحُراس والضُباط وبدأوا بتعذيبنا أكثر فأكثر تعودنا على المياه الساخنة
الآن أصبحنا نجلس على مقعد من الحديد يتم رشنا بالماء وأحدهم يضغط على زر أحمر وتبدأ
أجسادنا بالأرتجاف كسعف النخيل

كُل أسبوع يومين نحترق يومين نتكهرب
هذا حالنا أستمر لأربعة سنوات أخرى

فقدت يدي أعصابها ضعفت وبدأتُ ارتعش دائمًا
لا أستطيع مسك أي شيء اتألم كُلما أتذكر عندما كنتُ حلاق جيد وكيفَ كُنت أمسك المقص

والآن حقًا كبرت كالرجال الكبار الذين رأيتهم أول يوم
في سني الأربعين مُصاب بخللٍ بإحدى قدماي
ظهرت خُصلتين من الشيب على رأسي
يدي فقدتها فقط ترتعش

ولا زلت أسأل نفسي
متى النجاد متى ينقذوني متى اتحرر
ماذا عن عائلتي هَل يبحثون عني أم يأسوا
إجابات اسألتي مجهولة
ومستقبلي مجهول .....

تمر الأيام والساعات وامنيتنا نفسها لا تتغير فقط نود أن نتحرر عقاباتنا أصبحت سهلة التنظيف وحمل الأثقال

كُنا نسمع بأن بلادنا تتطالب بمجموعة من الأسرى وكم تمنيت أنا من ضمن هذهِ المجموعة التي تتحرر حتى يوم الخروج الى الباحة رأيت الذي أنقذني جلستُ بجانبهِ مع عدة رجال نتشارك أطراف الحديث قلتُ لهم لو تم اختياركم من ضمن المجموعات التي تتحرر اذهبوا الى عائلتي واخبروهم أني على قيد الحياة
قالوا كيف سيصدقونا
فتحت أزرار قميصي آريتهم الوشم الذي على صدري
الحرف الأول من إسم زوجتي وبجانبهِ أسماء أولادي
قولوا لهم رأينا الوشم
وحدثتهم عن مهنتي وعن عمل زوجتي ملاك الرحمة ممرضة في أهم مُستشفيات البلد ووصفتُ لهم شكلها

ثم صمت
قالوا ما بك
قلتُ مضت عشرة أعوام هَل لا زالوا في مسكننا
كيف أصبحت ملامحهم الآن هَل يذكروني كنتُ على أمل ولكن يأست لا أعلم عنهم أي شيء ولا يعلمون أني على قيد الحياة وبعدها دخلنا الى سجوننا على أمل واحدًا منا يخرج ويُعطي خبرًا العوائلنا

مضت أربعة أعوام أخرى بيأس وألم وبُكاء ليلًا
تغيرتُ بتصرفاتي وكلامي وثيابي في كُل عام كانوا ينقلونا الى سجن آخر نتعذب نتألم نصمت لا شيء بيدنا
لا نستطيع تغير حالنا

أتى خبر سيتم أرسالنا الى بلدنا لم تسعني الدنيا من الفرح
كيف حَصل هذا ؟ على ماذا اتفقوا البلدتان
لا نود أن نعلم فقط نود أن نتحرر لم أخذ أي شيء من السجن
فقط لعبتان من الخشب صنعتها لأبنتاي
وناي صغير لأبني أعلم إنهُ يحُب العزف
و ملعقة لطبخ الطعام لزوجتي وضعتهم في كيس وخرجتُ

أشعر كأنني طير يطير حتى رَكبنا بالحافلات
لا أحد منا إستطاع أن ينام من السعادة

ساعات ووجدنا أنفسنا على حدود بلادنا حافلات كثيرة
وامامنا شعب كبير من النساء والأطفال ينتظرون
عيناي من النافذة تبحث عن عائلتي
هَل تعلم سوف آتي؟
هَل ينتظروني؟
هَل يذكروني مرت ساعات عديدة

رأينا أمامنا تم تسليم مجموعة و نستمع الى هلاهل النساء
و فرحة الأطفال برؤية والديهم أنتظرنا قُلنا سوف يأتي دورنا
أننا صبرنا سنوات لا بأس بهذهِ الساعات
وضعتُ رأسي على النافذة وأنظر الى الخارج
حتى أستمعت الى صوت صراخ وشعرتُ الحافلة تتحرك

قاموا الرجال يحاولون فهم شيء تم ضربهم من قبل الجنود
والغضب في أعين الجميع ماذا حصل و لماذا لا نعلم شيء
من يحاول الحديث يأخذ ضربة عصى من الجنود

صمت و لا أعلم لماذا لم أستطيع بإخراج كلمة واحدة من فمي بداخلي بركان من النار ولكن تجمدت كالجليد

ما أصعب أن يُصيبكَ الكتمان وأنت في أمس الحاجة للكلام

عُدنا نعم عُدنا تلكَ الشمس المشرقة أختفت حل الظلام
ادخلونا وهم يدفعون بنا بغضب لم أفهم شيء وضعتُ رأسي على وسادتي بلا أمل وصلتُ الى أقسى درجات اليأس
سمعتُهم يتحدثون نشأ خلاف بين البلدتين واعادونا الى هُنا

أصعب المراحل التي يصل إليها الإنسان
هي التي لا يستطيع فعل شيء

هـذهِ هي حيـاتي هكـذا وهكـذا سـوف تسـتمر رُبمـا أخـرج مـن هُنـا الى السماء او الى عائلـتي كـفى كـفى لا تفكـر بعائلتـك
ليسَ لكَ أمل لتخرج من هُنا أبدًا

أحيانًا أصوات بداخلنا تقول لنا الحقيقة ولكن نَحنُ نتجاهلها
الحسرات والأهات بصدري تتكاثر مرت أعوام عديدة
لم أعد أحسبُها

في أي عـام نَحـنُ الآن لا أعـلم فقـط أعـلم مـضى الكثـير أصبحـتُ تمامًـا كالرجـال الكبـار وأظـن أنـني أصبحـتُ أكـبر منهـم

يومًا ورُبما كان آخر يوم لي يدي ترتجف أسير ببطئ شديد
اتجهت الى خزانتي جلبتُ أوراق بيضاء وقلم
تذكرت ورقة أجازتي الموقعة الى أين أوصلتني
ومن ثُم أشعلت سيجارتي
والدخان يملئ خارجي وداخلي

بدأت أكتب

رسالة الى إبني الكبير
هَل تَشبهُني كيف حالكَ هَل تزوجت تلك قريبتنا
التي كُنت تَحبها هَل لا زلت تحب العزف على الناي
يا بُني أنتَ بمثابتي الآن أهتم بأمك

ورقة بيضاء أخرى الى ابنتي الكبيرة
هَل لا زلتِ تُحبينني كُنتِ تتمني أن تتزوجي أحدًا يَشبهُني
هَل وجدتيه ماذا عن عملكِ هَل حاولتِ أن تصبحي قوية
و تثبتي نفسكِ عندما كُنتِ صغيرة قصصتي شعر دُميتك هَل أصبحتِ مُصففة شعر الآن انتبهي لنفسكِ أنا أيضًا أحبكِ

ورقة بيضاء أخرى الى صغيرتي
هَل تعلمين لازال صوتكِ عالق بمسمعي
عندما قلتي لي آخر أيام أبي لا ترحل يا ليتني لم أرحل يا ليتني استمعت لكِ أنتِ ماذا عنكِ هَل لديك عائلة
تذكريني دائمًا لأنني لم أنساكِ

ورقة أخيرة لزوجتي بيضاء كقلبها
هَل ستقبلين أعتذاري عن كُل خلاف حَصل بيننا
عَن كُل ليلة أزعجتكِ بها عن كُل نظرةٍ كانت لغيركِ
أنا أعلم أصبحت على عاتقكِ مسؤولية كبيرة
تركتُ لكِ بيتًا و أولاد دون أن اعاونكِ
انشغل بالي عليكم كثيرًا

لكن لو تعلمي كم عانيت هُنا ماذا أفعل ليسَ بيدي شيء
أنا على ثقة أنكِ ربيتي أولادي تربيةٍ جيدة
لا أعلم كيف أقول لكِ هذا لكن أتساءل كثيرًا
هَل تزوجتي من بعدي ثم بكيت

وسقطت سيجارتي على الأوراق
واحترقوا حتى أصبحوا رمادًا
مثل قلبي الذي أحترق في كُل هذهِ الأعوام

شعرتُ بأنني كهذا الدخان أسود اللون أختفى في الهواء أين ذهب لا أحد يعلم كُل شيء مجهول مجهول مجهول

النهاية

أنا الحفيدة الثالثة لهذا الأسير المجهول
نعم أصبح لهُ أحفاد أحد عشر حفيدًا كتبتُ كُل هذا من وحي الخيال من أجل جدتي التي أنتظرت أكثر من ثلاثين عام ولا زالت تنتظر على أمل أن تصل رسالة واحدة من جدي ولكنها كا تعلمون رسائل جدي احترقت أتمنى لو أحول الرسائل الى حقيقة لتطمئن جدتي أكثر وأتمنى لو أرسل لجدي رسائل وأقول لا زالوا عائلتك ينتظروك

أبنك الكبير تزوج التي يُحبُها وصاحب أعمال مُهمة
وعندما يعزف أحاسيسهُ تُبكي الصخر وهَل تعلم هو أيضًا أصبح جد مثلك ولهُ ولد كبير يحمل أسمك

ابنتك الكبيرة أمي أصبحت أشهر مُصففة شعر
ثبتت نفسها ونحنُ نتعلم منها القوة وتزوجت أبي الذي يشبهك أسمر وطويل وجذاب ولا زالت تُحبك
وتقول أحب أبي الأسير

ابنتك الصغيرة أصبحت ملاك رحمة (مُمرضة) جيدة
و لها ثلاثة أولاد وفتاة حتى أنها على مواقع التواصل الإجتماعي وضعت خلفيتها صورتكَ

أتعلم أي صورة تلك التي التقطتها ورحلت أرسلها
المُصور بعد رحيلك ولم تسمح جدتي بتمزيقها
ولم تضع علامه سوداء

نعم نعم إنها لازالت تنتظرك
لا تخاف لا زالت تُحبك الى حَد الجنون
عندما تتحدث عنك عيناها يلمعان كالنجوم لكنها مُنفردة بمنزل وحدها لا تحبُ المشاركة أبدًا
رُبما أنت السبب لا تود شَريك غيرك
وفي مُنتصف بيتها صورة كبيرة لكَ على الجدران
أظن أن لا تنساك حتى لو أصابها الزهايمر
لأن الزهايمر يصل الى جميع شرايين العقل
لكنهُ لا يصل الى القلب أبدًا

وأخيرًا أقول لكَ صديقك الذي أنقذك وجدها لجدتي
و أخبرها أنكَ على قيد الحياة حتى عندما أتيت أنت الى الحدود كانت واقفة مع أولادك تنتظرك لكنكَ كما عُدت أنتَ يأس هي أيضًا عادت دونك
كانوا سيحتفلون بعودتك رُبما أنت قطعت
الأمل لكنهما الى الآن ينتظروك و يبحثون عنكَ و لن ينسوك
واحفادك تعرفوا عليك واحبوك أيضًا مني ومنهم
قُبلة إحترام على جبينك ويدك
وتحية حُب لكَ
لا تيأس لأننا لم نيأس

الى هُنا أحبتي أختم معكم رسائل من أسير

أتمنى نُلت رضاكم

كتبتُ هذهِ الرسائل من أجل جدتي
التي أنتظرت جدي أكثر من ثلاثين عامًا
ولا زالت تنتظر...
خيط الأمل عندها سميك لم ينقطع أبداً